# مُلتقى الدُّعاةِ السَّنوي الثامن عشر

بعنـــــوان

## مهمة التعليم والتربية والدعوة إلى الله تعالى ومصادرها الصحيحة الآمنة

**من الجمعة ٢٩ ذي الحجة ١٤٤٥هـ إلى الأحد ١ محرم ١٤٤٦هـ**

## المحور الثاني : ضرورة القدوة وصفات المُقتدَى ووظيفـــــــة المقتـــــــــدي

المحاضر: الشيخ محمود بن محمد توفيق البوطي

# عنوان المحور:

# (ضرورة القدوة صفات المُقتدَى وظيفة المقتدي)

المحاضر: الشيخ محمود بن محمد توفيق البوطي

بسم الله الرحمن الرحيم

**الحمد لله الذي اصطفى من البشر رسلاً وأنبياء، كانوا مظهراً من مظاهر التفضل على البرية، إلى أن ختم بهم السلسلة النورانية بسيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. وهو سبحانه القائل:** (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ).

**والصلاة والسلام على هذا النبي الذي أكرم وشرّف الله عز وجل به الأمة المحمدية، فهو النبي المصطفى، والحبيب المجتبى، الذي جعله الله عز وجل نبراساً لمن بهديه اهتدى وبسنته اقتدى، وهو صلى الله عليه وسلم القائل:** (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به).

وبعد،

**فإن آثار القدوة في التربية والتعليم والدعوة إلى الله عز وجل مشهودة، وثمراته ممدودة، والحاجة إليه ملحة. وقد لخص الإمام الأوزاعي هذه الحقيقة فيما نقله عنه الحافظ ابن عساكر الدمشقي رحمهما الله تعالى في تاريخه حين قال:** (اعلموا أن هذا العلم دين، فانظروا ما تصنعون، وعمن تأخذون، وبمن تقتدون، ومن على دينكم تأمنون)[1].

اتخاذ القدوة من نوازع الفطرة السليمة

**ومما ينبغي أن نكون منه على دراية، أن مسألة تحري القدوة،** استجابةٌ لحاجة فطرية، **تنبع من كوامن النفس البشرية. ولولا ذلك لما اتخذ**

[1] ٦/ ٣٦٢ تاريخ دمشق

الباري عز وجل من سيدنا آدم نبياً مرسلاً، بعد أن كان والداً ومربياً، ليكون قدوة لذريته في نبوته بعد أبوته.

فإن الله تعالى لم يخلق البشرية عبثاً، ولم يتركهم هملاً، بل جعل لهم منذ نشأتهم الأولى أسوة، وارتضى لهم قدوة، ليهتدوا بهديه ويستنوا بسنته، وينصاعوا لأمره، فيرشدهم ويميز لهم الحق عن الباطل والحسن عن القبيح.

ومع تكاثر ذرية سيدنا آدم وتفرقهم في جنبات الأرض، باتوا أمماً وقبائل، فكان من حكمة الباري عز وجل أن يتتابع الرسل والأنبياء إلى القبائل والأمم دعاة وهداة، كما أخبرنا بذلك رب العزة جل شأنه إذ قال: (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ). منهم من قص الله عز وجل علينا شيئاً من أخبارهم في كتابه، ومنهم من لم يقص.

أرسلهم ليكونوا لأقوامهم أسوة وقدوة، فيرون كيف يتصرفون، ووفق أي أمر يمضون، ليقتدوا بهم في أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم. (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّه). ولا تخالف ولا اختلاف فيما جاءوا به، وكل منهم مصدق لما بين يديه من الأنبياء.

ولو أمكن صلاح المكلفين من دون قدوة لما كان هناك حاجة للمرسلين عليهم الصلاة والسلام

وهؤلاء الرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى لأقوامهم خاصة، قد بشروا ببعثة القدوة العظمى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتمهم وإمامهم، وبيّنوا لأقوامهم نعوته وصفاته: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ).

وقال تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

**وقال تعالى:** (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ).

**فكانوا على دراية تامة بصفاته الخلقية والخلقية من قبل بعثته.**

**والناس في استجابتهم لأنبيائهم تجاه هذا النبي عليه الصلاة والسلام تميزوا إلى فسطاطين ما بين مقتد مهتد، أو متمرد قد شطن عن الاهتداء، وتمرد على الاقتداء.**

**وكان من حكمة الباري عز وجل أن تسبق بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فترة، خلت عن الأنبياء والرسل، ففي تلك الفترة اشرأبت الأعناق بدافع من الفطرة بحثاً عن القدوة، الكل ينتظر مقدم نبي ليسبقوا إليه، فيقتدون به، فكان اليهود مثلاً يقولون للأوس والخزرج:** (إن نبياً الآن مبعثه قد أظل زمانه)، **وكلام الراهب بحيرا لأبي طالب حين التقى به في رحلة الشام، وكلام ورقة بن نوفل للسيدة خديجة حين نزول الوحي كل مظاهر تدل أولي العقول والأفهام على أن مسألة تحري القدوة والأسوة من نوازع الفطرة.**

**ثم إن رحلات البحث عن القدوة والأسوة في تلك الفترة التي خلت عن الأنبياء والرسل والتي تواترت أخبارها إلينا خير برهان، كرحلة سيدنا سلمان الفارسي أو سيدنا صهيب الرومي وأمثالهما في سبيل السبق إلى النبي الذي أطل زمانه آنذاك صلى الله عليه وسلم، إنما كانت دلائل على أن أرباب الفطرة السليمة من شأنهم أن يبحثوا عن القدوة، ليستندوا إليه، ويقتدوا به، وينهلوا منه ما فيه صلاح أمرهم. إذ لولا القدوة، لتاه الخلق، ولتفرقت بهم السبل عن سبيل الله، ولما وجدوا من يأخذ بأيديهم إلى الله عز وجل، ولما وجدوا من يعلمهم أصول العبادة والشرائع، ويرشدهم في سلوكهم وأخلاقهم ومعاملاتهم.**

فكما لا يمكن أن يتصور ولد من غير والد، ولا مريد من دون مرب ومرشد، فكذلك لا بد لمن دان بالعبودية لمولاه أن يكون متعلقاً بأسوة ومتبعاً لقدوة، يدله على الله، يأخذ بيده إلى ما فيه رضاه.

لذا كان من مقتضيات الفطرة السليمة أن يتحرى العاقل قدوة يستند إليه في أموره وشؤونه، بخلاف من اعترت فطرته تشويه، فتراه يمضي حياته عبثاً، تائهاً عن سبب وجوده، لا يعنيه الوصول إلى أسوة ولا التعرف على قدوة، لا غاية له في الحياة سوى تلبية الغرائز والشهوات.

مرجع القدوات في جميع الخيرات سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

وإذا علمنا أن الأصل في القدوة والأسوة، هم الأنبياء والمرسلين، فلنعلم أن الله تعالى قد ختم تلك الرسالات والنبوات ببعثة القدوة الكامل في جميع الخيرات سيد السادات صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم. وأن الأمة المحمدية قد ناها من الخصائص والمزايا ما لم تنله أي من الأمم الغابرة ببعثته، كل ذلك عندما ارتضى الله عز وجل لهذه الأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قدوة تقتدي به، وأسوة تهتدي بهديه، ليكون للعالمين رحمة وبشيراً ونذيراً، ودالاً على الله وسراجاً منيراً. فقال الله عز وجل: (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا).

فكل من أراد أن يسلك إلى الله عز وجل لا بد له أن يقتدي بهديه ويستن بسنته، ويذعن لدعوته سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فهو الإمام ولا إمام له، وهو المقدم ولا مقدم عليه. (وأصل الجود من ذا المنبع) صلى الله عليه وسلم.

**ولا يتصور من مسلم يفخر بنسبته إلى نبيه، ويعتز بقدوته، ثم تراه يجهل سيرته، أو لا يدري شيئاً عن شمائله وخصاله، إذ كيف يقتدي العاقل بمن يجهل شؤونه وأحواله.**

**ومن اتخذ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أسوة وقدوة كما أمر الله تعالى، لن يحيد عن الجادة، ولن يخرج عن المنهج، ولن يعكر صفوه مبتدع ولا دخيل، لأن الاقتداء بهذا النبي حصن حصين يحول دون التيه والضلالة، يحول دون خرق المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلى هالك كما قال فيما رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد:** ( ..تركتُكم على البيضاءِ ليلِها كنهارِها لا يزيغُ عنها بعدي إلا هالِكٌ ، ومن يَعِشْ منكم فسَيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بما عرَفتُم من سُنَّتي وسُنَّةِ الخلفاءِ المهديِّينَ الرَّاشدينَ ).

الاقتداء بوراث خير البريات صلى الله عليه وسلم

**ولعل قائلاً يقول: وكيف لنا أن نقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم القدوةِ الكامل، صفوةِ الله، وحبيبِ الله ومصطفاه، وقد حالت بيننا وبينه القرون المتطاولة، فلم تكتحل عيوننا بلقياه، وإنما هي أخبار وشؤون علوية نقلت إلينا ، وليس الخبر كالعيان.**

**أقول: لئن لم يتح للمتأخرين من أمثالنا أن ينالوا من الفضل والشرف ما ناله المتقدمون الذين اكتحلت أعينهم برؤية أنوار الطلعة المحمدية، ومجالسته، وصحبته، وسماع كلامه، فلنعلم أن من خصائص هذه الأمة، أن أسرار النبوة وأنوارها لا تنقطع بانتقال نبيها صلى الله عليه وسلم ، هي أسرار وأنوار وشؤون عُلوية ذوقية تسري عبر سلسلة متصلة مسندة تستقي من معين ألحاظ خير البرية، وتبقى مستمرة إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها.**

وما ناله قلب الصحابي وداخله من سر الصفاء عندما رأى وجالس منبع الكمالات وباب العنايات سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، سرى إلى قلوب أرباب القرون الخيرية الذين رأوا من رأى خير البرية، ثم سرى من عيون أرباب القرون الخيرية إلى عيون من رآهم، ومنهم إلى من رأى من رآهم.. وهكذا يَسْري سرٌّ الخصوصية عبر القرون المتطاولة بسند متصل إلى أن تصل هذه الأسرار إلى حملة نور النبوة من أهل هذا الزمان وما بعد هذا الزمان؛ وما بين شيخ ومريد يسري السر عبر تلقٍّ أو مجالسة أو نظر. ولذا يقول سيدي الإمام الحداد:

هداة الورى، طوبى لعبد رآهمُ وجالسهمْ لو مرة منه في العمرِ

وكل من استقى من هذا السند وحمل سراً من أسرار الوراثة، يصلح لئن يكون قدوة.

حاجة الأمة إلى القدوة اليوم

وإذا علمنا أن مسألة اتخاذ القدوة من دوافع الفطرة السليمة، لا بد أن نعلم أن الحاجة إلى القدوة الرشيدة لا تخلو أن تكون على صعيد الأمة، وعلى صعيد البيت، وعلى صعيد المدرسة، وهكذا بحسب كل بيئة.

أما على صعيد الأمة، فإن الحاجة تزداد كلما تكاثفت المشوشات، وتكاثرت الادعاءات، وعصفت بالأمة المشكلات، وحصل التهارج بين الفئات، وتكاثفت التيارات الجانحات، وظهرت على جسد الأمة مظاهر غريبة أشبه ما تكون بالثآليل على الجسم السوي، هي من عوامل إفساد الفطرة القويمة.

حين تبرز قدوات مزيفة ويتصدر المشهد من لا خلاق لهم، الذين اتخذوا من أنفسهم قدوات، يتكلمون بالدين انطلاقاً من الرغائب

الدنيوية، والأمزجة الدنية. فيحصل الشك والارتياب، ويتيه كثير من الشباب في ظل هذه الفوضى والضوضاء.

والنتيجة، شباب غض، يبحثون عن القدوة الرشيدة بسائق من فطرتهم السليمة، لتأخذ بأيدهم من التشتت وتنتشلهم من الضياع، يبحثون عن معين ينهلون منه ما يرقق قلوبهم، وينعش أرواحهم، ويزكي نفوسهم، ويبين لهم أحكام دينهم، بعد أن استنزفتهم الدنيا بمشاغلها ومتطلباتها، وأغرقوا بالماديات، يفتشون عن حصن يقيهم من مغبات الضلالة، ينظرون يمينة ويسرة فيصطدمون بفوضى الادعاءات، فيتيهون في الجداول والسواقي المتناقضة المتغايرة عن الينبوع الصافي الذي ينبغي أن يأخذ بأيديهم.

في مثل هذه الحالة تزداد الحاجة إلى القدوة الرشيدة.

نعم، فقد اختلط الحابل بالنابل، ووجد المتسلقون لأنفسهم مكاناً على الشاشات والمنابر والقنوات، وغيّب صوت القدوة في ضوضاء المدعين، واختلط الغث بالسمين، وذابت معالم الهوية الإسلامية الوسطية المتزنة في بوتقة الانحلال والتبعية. وبات المتمسك بدينه، اللائذ بقدوته غريباً بين أهله وخلانه.

أليس هذا تشخيص لحال الأمة الإسلامية اليوم في كثير من بلدانها وبقاعها؟ ففي مثل هذه الحالة تزداد الحاجة إلى قدوة يجدد للأمة دينها، فيطوي للعلماء والناصحين المسافات، وينزع من القلوب الآفات. فقد روى أبو داود عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها). ومن أمثال هؤلاء كان الإمام الأشعري والماتريدي والغزالي .. والأمة اليوم بحاجة إلى قدوة، يجدد لها دينها.

أما الحاجة إلى القدوة على صعيد البيت، لما للأب القدوة والأم القدوة من دور وأثر في تربية الأولاد والبنات، في إنشاء جيل صالح يفرح به قلب سيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. فإن الأب والأم إن كانوا أهلاً للاقتداء، فلا بد أن يغرسوا في قلوب أولادهم وبناتهم محبة المصطفى صلى اللّه عليه وسلم، ومحبة أصحابه وآل بيته. الأب القدوة يتابع أولاده وبناته، ويرعاهم ليصنع منهم قدوات، ينشئ أولاده على معان الرجولة، المستقاة من سير أهل البيت الطاهر والصحابة الأكابر رضوان اللّه عليهم. والأم كذلك لا يقل دورها عن دور الأب إن كانا أهلا للاقتداء

فشتان بين أم أفسدت ما تبقى من خلق الحياء في نفس ابنتها، حين عودتها لبس المتهتك من الثياب، وبين أم قدوة حببت لابنتها الحشمة والحياء، ودخلت على قلب ابنتها من بوابة الأسوة والقدوة، حدثها عن لباس السيدة فاطمة الزهراء التي هي نعم الأسوة لبناتنا، وعن عفة وطهر السيدة عائشة الحميراء والتي هي نعم القدوة لنسائنا؟ وذكرتها لها ما قاله سيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم للسيدة أسماء.

شتان بين من يغرس في نفوس أولاده وبناته حب من ارتضاهم اللّه تعالى أسوة وقدوة، وبين من بات أولاده وبناته يقتدون ويتأثرون بفاسق أو فاسقة، بفاجر أو فاجرة، حين ترك لهم الحبل على الغارب وتركهم نهبة للشرود تتنازعهم المفاسد التي تصب على قلوبهم وأخلاقهم عبر هذه الشاشات.

ولا خير فيمن قطع صلته وصلة ابناءه وبناته بخير البريات، واتخذ لهم من أعداء سيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أسوة وقدوة.

ومن هنا ندرك مدى الحاجة والضرورة إلى وجود القدوة الرشيدة في حياة المسلم، على صعيد الأسرة وعلى صعيد المجتمع، وأثر وجود القدوة في التعليم أو في التربية أو في الدعوة إلى اللّه عز وجل.

حكم البحث عن قدوة

**وإذا علمنا أن البحث عن القدوة من نوازع الفطرة، فلنعلم أنه واجب شرعي، دلت النصوص الكثيرة على ذلك. من ذلك قوله تعالى:** (وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ). **أمر بالاتباع.**

**ومن ذلك قوله تعالى:** (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ)، **وأمر بالاقتداء.**

**ومن ذلك قوله تعالى:** ("يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ") **وأمر بالملازمة لننال شرف المعية.**

**ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم:** (لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم).

**ومن هنا ندرك أن حملة نور النبوة لا يخلو منهم زمان، موجودون ما دام القرآن، ولو لم يكن لهم وجود لكان الأمر الرباني لا موجب له، والباري عز وجل منزه عن اللغو حاشاه، ذلك لأن الحياة البشرية لا تستقيم من دون اقتداء بمن جعلهم أسوة وقدوة، ولولا حملة هذا النور، لضاعت الشرائع بموت الأنبياء، ولكان حال الصادقين كحال الأيتام، لا يجدون من يأخذ بأيديهم وينصحهم ويرشدهم. والله تعالى يقول:** (وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا). **وبحسب المفهوم المخالف للآية فإن من يهده الله سيجد لنفسه ولياً مرشداً، يقتدي به، ويرشده إلى سبل الهدى والرشاد.**

**لذا يقول الإمام عبد الله بن علوي الحداد:** (وَكُن شَدِيدَ الحِرصِ عَلَى طَلَبِ شَيخٍ صَالِحٍ مُرشِدٍ نَاصِحٍ، عَارِفٍ بِالشَّرِيعَةِ، سَالِكٍ لِلطَّرِيقَةِ، ذَائِقٍ

لِلحَقِيقَةِ، كَامِلِ العَقلِ وَاسِعِ الصَّدرِ إلى أن قال: فَإِن ظَفِرتَ بِهِ فَألقِ نَفسَكَ عَليهِ وَحَكِّمهُ فِي جَمِيعِ أُمورِكَ وَارجِع إِلى رَأيِهِ وَمَشُورَتِهِ فِي كُلِّ شَأنِكَ وَاقتَدِ بِهِ فِي جَمِيعِ أَفعَالِهِ وَأَقوَالِهِ).

وقال: (وإذا لم يجد المريد شيخاً فعليه بملازمة الجد والاجتهاد مع كمال الصدق ... وإلا فالمشايخ المحققون موجودون ولكن سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه).

صفات المقتدى

**فإن قيل: ما هي الخلال التي ينبغي توافرها في القدوة، ليتخذها كل منا معياراً، ويستعين بها للتمييز ما بين القدوة الحقيقي والمتسلق الدعي.**

**أقول: هناك الكثير من الصفات الواجب توافرها في المقتدى به. ولعل أبرزها:**

**- إذا تأملت في كلامه وبيانه، تجد أنه يقوم على أساس متين من العلم. ذلك لأن المحور الذي تدور عليه حقائق هذا الدين إنما هو العلم، فليست هي أحكام مزاجية، وإنما حقائق منبثقة عن علم ودراية واحتكام لكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإن العلم باب الوصول إلى الله عز وجل، وما اتخذ الله من ولي جاهل ولو اتخذه لعلمه. وقد ذكر جدّي رحمه الله تعالى في كتابه هذا والدي:** ((أقبل إليّ والدي ذات يوم قبل أن يمضي بي فيسلمني أصغَر تلميذ إلى شيوخ معهد التوجيه الإسلامي، وقال لي: اعلم يا بني أنني لو عرفتُ أن الطريق الموصل إلى الله يكمن في كسح القمامة من

الطرق، لجعلت منك زبالاً، ولكني نظرت فوجدت أن الطريق الموصل إلى الله هو العلم به وبدينه، فمن أجل ذلك قررت أن أسلك بك هذا الطريق.

- **وفي سلوكه، تراه غيوراً على حرمات اللّه، يتسامى فوق الشهوات والأهواء، ولا يغتر بما يعرض له من مغريات، ولا يتخذ الدين سلماً أو مطية لتحصيل مكتسبات دنيوية، بل يضحي بالدنيا والمصالح كلها في سبيل مرضاة رب البرية عز وجل، ولا يبيع دينه بعرض من الدينا قليل.**

- **تراه يهتم لأمر الإسلام والمسلمين عامة، في مشارق الأرض ومغاربها، دون أن تشم منه رائحة عصبية لجماعة أو لفئة. فهو يحمل همَّ الأمة المحمدية جمعاء، واسع الأفق شامل الرؤية.**

- **وفي دعوته، يزدان بالحكمة والوعي، وقد جعل من نفسه دلالاً على بضاعة اللّه عز وجل أينما حل وارتحل، يؤلف بين القلوب، يبشر ولا يُنفّر، يبني ولا يهدم، لا يُقنّط عاصياً، ولا يبْخس جهداً.**

- **مذهبي في فقهه، أشعري أو ماتريدي في عقيدته، منضبط في فتاويه، لا يخرج عن حكم ثبت فيه إجماع الأئمة.**

- **إذا جالسته، يرفع من همتك، ويبث فيك العزيمة على الطاعة، وإذا تكلم لامس قوله شغاف قلبك. فهو رباني يدلك على اللّه حاله، كما قال اللّه تعالى:** (كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ..)، ينطبق عليه قول سيدي ابن عطاء الله السكندري: (لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله).

- **وإذا فتشت عن شيوخه ومعينه الذي استقى منه، تجد أن له مشرباً وصلة بالقوم، من طريق معتبرة، وله سند متصل إلى سيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. فهو يمثل حلقة مباركة جديدة في حفظ هذا**

الدين، عبر سلسلة متصلة بسيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى الوحي إلى رب العزة جل شأنه، كابراً عن كابر.

- ومن نعوته أنك تجده متمسكاً بما تلقاه عن شيوخه، لا تبديل ولا تغيير، ولا تنكر ولا انتقاص.

- كما أنه ينزه قلبه عن سوء الأدب أو سوء الظن بأحد من السلف، يعترف بفضلهم، ينزه لسانه عن انتقاصهم، أو تجهيل أحدهم، أو الطعن بهم، لا يدعي أنه اكتشف ما خفي عنهم، بل تجده متمماً لمهمتهم، كاشفاً لأسرار ما وصلوا إليه.

تلك هي أبرز الصفات التي ينبغي أن تتوافر فيمن ينبغي أن يتخذ قدوة، سواء في التربية أو في السلوك أو في الدعوة إلى اللّه، تجده يترجم وراثة بحسن الاتباع لهدي خير البرية، يمثل المدرسة المحمدية في زمانه، والبحث عمن توافرت فيه هذه الصفات يحتاج إلى هِمة وتضحية، وبموجب نعمة العقل يدرك الإنسانُ ما يفيده وما يضره، ومن الذي ينبغي أن يُقدِّمه ومن الذي ينبغي أن يؤخِّره؛ ليميز ما بين القدوة عن سواه، يميز ما بين دعاة الجنة ودعاة النار.

## وظائف المقتدي

وإذا علمنا صفات القدوة، وأن الواجب على المقتدي البحث عنه وتحري صفاته، فلنتحدث عن شيء مما ينبغي أن يتحلى به المقتدي من صفات، وما ينبغي أن يسعى إليه من واجبات، في سبيل المثول بين يدي القدوة الذي توافرت فيه الصفات الآنفة.

وأبرز الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها المقتدي:

- لا بد من الحرص على مجالسة الصالحين، وتعلق القلب بالربانيين ممن هم مظنة قدوة، في الوقت الذي ينبغي أن يجتنب مجالسة

**المحجوبين. يقول جَدّي رحمه الله:** (إن مصاحبة الأخيار تنقل إشراق أفئدتهم إلى قلبك، وإنَّ نظرهم إليك ينير طوايا نفسك، وإن في مجالسة أصحاب رسول الله له والآثار التي اكتسبوها من ذلك لأكبر شاهد على ما نقول. ولا ريب أن النقيض يورث النقيض)٢.

**ومن لوازم تعلق القلب بالصالحين من المتقدمين أو المتأخرين، ومن الأولين والآخرين، أن تجد المتعلق بهم متتبعة لأخبارهم، ويأنس بسماع كلامهم، يتأمل شؤونهم وأحوالهم، في همتهم بالنهار، وبكائهم في الأسحار، وكم أجرى الله على أيديهم من هدايات، وما أحاطهم به من عنايات، فحفظهم من المكائد، وحفظ قلوبهم من أن تزيغ إلى السوى والدون، ليقتفي أثرهم.**

**- وفي هذا الباب عليه أن يحتاط لدينه، فيلتزم حسن الأدب مع عباد الله جميعاً، وهذا من أوسع أبواب الوصول إلى القدوة، والحديث عن حسن الظن واسع وعريض. وحسبنا أنه يمضي وفق القاعدة التي خطها الربانيون: (كل من رأيت فالخضر اعتقد). فكيف يمكن أن يجد القدوة من شأنه أن يظن السوء بالمسلمين، يسيء الأدب مع الصالحين، المستورين أو المشهورين، وما من شك إلى أن من كان دأبه التجرؤ على عباد الله عز وجل بسوء أدب أو بسوء ظن أن تزل به القدم فيكون مع الساقطين.**

**ثم عليه أن يحفظ قلبَه بين يدي من يجالسهم ممن هم مظنة صلاح وتقوى وهداية، وحسن الأدب الباطن قبل الظاهر، يرقبُ سرَّه، ويحرص على تطهير طويته، وليعلم أن القدوة ليس نبياً معصوماً، بل قد يكون غضوباً، وهذا لا يغض من طرفه. لذا يقول الإمام الحبيب عبد الله الحداد: (ولا تعترض عليه في شيء من أحواله لا ظاهراً ولا باطناً، وإن**

---

٢ قضايا ساخنة: ٣٤٢.

وقع في قلبك شيء من الخواطر في جهته فاجتهد في نفيه عنك، فإن لم ينتف فحدث به الشيخ ليعرفك وجه الإخلاص منه). وقد أفاض الإمام الحداد في هذا الباب ضمن رسالته: آداب سلوك المريد. فليرجع إليه.

- ومن صفات المقتدي أن يتسلح بسلاح العلم، وينير سبيله ويحصن نفسه من الزيغ والضلالة بمصباح العلم، فيتعهد عقله بما يتلقاه عن شيوخه، من أمهات الكتب النافعة، والعلوم الرافعة، التي خطّها علماء ربانيون جعلهم اللّه مظهراً لحفظ شريعته، يتلقى العلوم، ويحفظون المتون، من دون تعويل على ما يحمله من ألقاب علمية وشهادات. فإن العلوم والأسرار والأنوار إنما تستقى من صدور الرجال.

- والأهم من هذا وهذا وذاك يرفع يديه إلى اللّه عز وجل ويجأر إليه بالدعاء الواجف أن يدله على القدوة، أن يدله على من ينهض حاله ويدله على اللّه بمقاله ويغسل ما ران على فؤاده، وأن يرزقه حسن الأدب معهم، وأن يعطف قلوب الصالحين عليه، فإن القلوب بين يدي المولى عز وجل.

ويقول سيدي ابن عطاء اللّه : من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل. فلا بد من الدعاء والرجاء، فإن القدوة لن يطرق بابك.

فإذا وفقك اللّه تعالى ووجدت الأسوة والقدوة الذي ينهضك حاله ويدلك على اللّه مقاله، فاعلم أنك قد حظيت بنعمة عظمى تقتضي منك مزيد تواضع وامتنان وشكر للملك العلام، إذا أكرمك اللّه تعالى بمعرفة ومصاحبة الأسوة والقدوة، ولا يقتضي ذلك تفاخر على بقية الأقران، ولا تعصب ولا استصغار للآخرين، فهذا من الآفات التي يقع بها الكثيرون. و وقد ذكر جَدّي رحمه اللّه تعالى في كتابه هذا والدي: ((أقبل إليّ والدي ذات يوم قبل أن يمضي بي فيسلمني أصغَر

تلميذ إلى شيوخ معهد التوجيه الإسلامي، وقال لي: اعلم يا بني أنني لو عرفتُ أن الطريق الموصل إلى الله يكمن في كسح القمامة من الطرق، لجعلت منك زبالاً، ولكني نظرت فوجدت أن الطريق الموصل إلى الله هو العلم به وبدينه، فمن أجل ذلك قررت أن أسلك بك هذا الطريق.

وقد ذكر جَدّي رحمه الله تعالى في كتابه هذا والدي: ((أقبل إليّ والدي ذات يوم قبل أن يمضي بي فيسلمني أصغَر تلميذ إلى شيوخ معهد التوجيه الإسلامي، وقال لي: اعلم يا بني أنني لو عرفتُ أن الطريق الموصل إلى الله يكمن في كسح القمامة من الطرق، لجعلت منك زبالاً، ولكني نظرت فوجدت أن الطريق الموصل إلى الله هو العلم به وبدينه، فمن أجل ذلك قررت أن أسلك بك هذا الطريق.

واستحضر معاني أبيات قالها قديماً الإمام السودي إذ يقول: ما أنت لولاهم أجروا عنايتهم .. لولا تعرفهم ما كنت نتعرفهم ..

من آثار غياب القدوة

وغياب القدوة، لا بد وأن له نتائج وآثاراً سلبية على صعيد الأمة، وعلى صعيد المجتمع، كما أن له أثره السلبي على صعيد البيت الواحد وعلى صعيد الفرد المسلم. ومن آثار غياب القدوة:

- أن يتسلط الهوى ويتحقق الانحراف والانجراف، ويتفشى داء عقدة النقص في المجتمع، فإن البحث عن القدوة من نوازع الفطرة كما علمنا، وإذا غاب القدوة تعلقت القلوب بمن لا يورث اتباعه ومحبته إلا الحسرة والندامة، فذا يتخذ ممن لا خلاق له قدوة، وذا يتخذ من كافر أسوة، وذاك يتخذ من ممثل أو مغنٍ قدوة .. فذا يقلده في لباسه، وذا يقلده بقصة شعره، وربما رسموا على أجسادهم وشوماً كوشومهم

وهكذا .. وكل هذا من آثار غياب القدوة وبالتالي تسلط الهوى وتحقق الانحراف والانجراف

ولو أن رابطة وصلة ربطت بين قلب هذا الذي تاه عن القدوة الحقيقة بسيد المرسلين، صلى الله عليه وسلم، ومن تبعه من الصادقين، لما تاه وضل في اتباع وتقليد الآخرين، ولما بحث عما يعوض به عقدة نقصه بل اعتز بإسلامه وافتخر بانتمائه ورفع رأسه عاليا بنسبته لنبيه وبمن ارتضاهم الله عز وجل أسوة وقدوة، قد أخبر الله عز وجل العزة لمن تكون. فقال: "وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ".

- عندما يغيب القدوة سرعان ما تنفذ الطعنات في جسد الأمة، والطعنات إنما تتمثل بالمؤامرات، وتغرير المسلمين بالترهات والباطلات، وبأوهام وشعارات، فيخدع الناس بالأضواء، ويغترون بما يغزوهم من الأعداء.

- إذا غاب القدوة الذي يتسم بالإخلاص لله والعلم الغزير الجم بكتاب الله وسنة رسول الله، يتصدر المشهدَ رؤوس الجهل، وتشيع الفوضى في الفتوى، ويتخذ كل عليم لسانٍ لنفسه منبراً، يتمثل في صفحة أو قناة أو شاشة، ينطق باسم الإسلام، ويفتي بجهل إذا استفتي، بل ويرد كلام الأئمة الأعلام، ويسعى لإلغاء ثوابت الأمة، كالصحاح، وينقض عرى الإجماع، وينال من الرموز الذين رفع الله بهم الإسلام، وزبوا عن حياضه، ويرسم إسلاماً جديداً على مزاجه وهواه، ويغلف هذا المزاج بالدلائل والموازين العلمية المنطقية. وهذا مصداق قول النبي صلى الله عليه وسلم عند غياب القدوة، وذلك فيما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً، ينتزعه من العلماء ولكن يقبضه بقبض العلماء حتى إذ لم يبقي عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا).

- ومن هذا الباب، عندما يغيب القدوة، تتسرب إلى العالم الإسلامي تيارات تعيث في دين اللّه عز وجل فساداً، وفي عقول المسلمين شكاً وريباً، كتيارات الحداثة وما أشبهها مما يسعى في تغيير الإسلام وتبديله، فتنشأ الفقاقيع والدمامل من الأفكار الدخيلة، كما قال الشاعر: خلا لك الجو فبيضي واصفري.

كل يدلي بدلوه ويعمل فكره ورأيه إمعاناً في تعكير صفو هذا الدين، كل يتحدث عن إسلام جديد يوافق هواه. يلوون أعناق النصوص، ويعملون الرأي في تفسير وفهم القرآن، ويتصيدون الأقوال الشاذة لتشويش العقول والأفهام، إن في العقائد أو في أمور التشريع.

وآثار كثيرة، ومفاسد عظيمة ستظهر عند غياب القدوة، وستنعكس بظلالها القاتمة على شتى فئات المجتمع. وإذا بلغ الحال بالأمة هذا المبلغ فالأحرى بنا أن نتبع قول المصطفى صلى اللّه عليه وسلم: (إذا رأيتَ شُحّاً مُطاعاً، وهوىً متبَعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجابَ كل ذي رأي برأيه، فدع عنك أمرَ العامة، وعليكَ بخاصة نفسك).

- ومن آثار غياب القدوة على صعيد الفرد، الضياع في ضوضاء المدعين، يغدو قلبه نهبة للشرود، ونهبة للضياع والغفلة، بل مرتعاً لمن لا يزيد القلب بعداً.

وخلاصة القوم الخاتمة

إن وجود القدوة نعمة جليلة، وسرّ من الأسرار العظيمة، التي اختص بها رب العزة جل شأنه أمة المصطفى صلى اللّه عليه وسلم، حتى من بعد انتقال نبيها إلى الملأ الأعلى، جعل أسرار النبوة مستمراً إلى يوم القيامة.

والواجب على كل مسلم يعتز بانتمائه بشرف العبودية لمولاه عز وجل، وشرف التبعية لرسوله صلى اللّه عليه وسلم، أن يدرك أهمية

القدوة في حياته، ويسعى لاقتفاء أثر هؤلاء القدوات في زمانه، يسعى إليهم، ويربط قلبه بهم، وحبله بحبلهم. ويختصر على نفسه المسافات، عبر مجالستهم، والتأمل في خصالهم وخلالهم التي هي استمرار للخصال المحمدية صلى الله عليه وسلم في الأمة عبر وراثه في البرية.

ولنعلم أن السبيل إلى تفعيل هذه الوسيلة التربية الدعوية التعليمة في نفوسنا ونفوس، أولادنا وبناتنا، إنما يكمن بالرجوع إلى نهج الأسلاف بالالتفاف حول من توافرت فيه صفات الأسوة والقدوة.

فإن من الثابت يقيناً ومن المجمع عليه عبر القرون بأن أمر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها، وأول هذه الأمة هو الواقع الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وأصحابه.

فإن عزت القدوة، ولم يوفق لذلك، فعليه أن يتخذ من سيرة وهدي وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وأصحابه منهاجاً ومقياساً، ومن بعده ومن بعده من وراثه.

من هذا الباب يصلح أمر المسلمين، وتوصد الأبواب في وجه الكائدين، وتفتح أبواب الهداية إلى قلوب التائهين، لذا ينبغي أن تحرص على مصاحبة من ينهضك حالُهُ، ويُذَكِّرُكَ بالله مقالُهُ، ويدعو لكَ بالرَّحمة غداً إذا ما ارتحلت إلى الله عزَّ وجلّ.

فأسأل الله تعالى أن يدلنا عليهم، ويربط قلوبنا بهم من الأولين والآخرين، ويشفعهم فينا يوم نلقاه، ويحشرنا معهم في فراديس الجنان، والحمد لله رب العالمين.